دور العناصر الاجنبية في تجزئة الدولة العربية الاسلامية في العصر العباسي

الاستاذ الدكتور توفيق سلطان اليوزبكي*

مرت على الامة العربية عهود طويلة كانت فيه متفرقة الكلمة مما اتاح للقوى الاجنبية من فرس وروم السيطرة على اجزاء مهمة وحيوية من الارض العربية فقد سيطر الفرس على العراق والخليج العربي في حين سيطر الروم على الشام ومصر، وقد تولد عن الوجود الاجنبي نهوض الوعي العربي لمواجهة هذا التحدي تمثل باصطدام المالك العربية على اطراف الجزيرة العربية بالدولتين الساسانية والبيزنطية وكان ذلك تعبيراً عن التصدي لهذه القوى الاجنبية، وكانت ابرزها معركة ذي قار التي انتصر فيها العرب على العجم، وقد باركها الرسول الكريم (ص) بقوله (هذا اول يوم انتصفت فيه العرب العجم)(١).

وقد تطور هذا التحدي والنهوض الحضاري بظهور الاسلام، فقد دفعت العقيدة الاسلامية العرب الى الجهاد والتحرير بعد ان وحد العرب في دولة واحدة وعقيدة موحدة.

وتوالت معارك العرب الكبرى ضد الفرس والروم وفي طليعتها معركة القادسية الاولى في العراق، ومعركة اليرموك في الشام، واستطاع العرب المسلمون في اقل من نصف قرن تحرير جميع اجزاء الوطن العربي.

الا ان عوامل التحدي لدى هذه القوى الاجنبية لم تقف عند هذا الحد بل توالت اعتداءات الروم على حدود الدولة العربية التي تصدت لها بكل عزم وقوة، ظهر ذلك واضحاً وبلغ ذروته في العصر الاموي من خلال محاولات الامويين لفتح القسطنطينية والقضاء على الدولة البيزنطية لابعاد الخطر البيزنطي نهائياً عن حدود الدولة العربية.

كما حاولت العناصر الفارسية الناقمة على العرب لزوال سلطانهم السياسي والديني فراحت تدبر المؤامرات وتدعم حركات العصيان والتمرد ضد الدولة الاموية طمعاً في تحقيق آمالها بالعودة بالدولة الفارسية ودينها المجوسي الى سابق عهدهما، فقد حاولت دعم الحركات المناوئة للدولة الاموية فلما ظهرت الدعوة العباسية انضموا تحت لوائها، وبعد قيام الدولة خابت آمالهم السياسية والدينية فكشفوا عن شعوبيتهم ونزعتهم الانفصالية التي كانوا يكتمونها، ظهر ذلك واضحاً عندما عزم ابو مسلم الخراساني على اعلان العصيان في خراسان والانفصال عن الدولة العباسية بمساعدة الفرس (مسلميهم ومجوسهم) وكشف عن نياته الانفصالية عندما ولاه الخليفة المنصور الشام بدلاً من خراسان فكان جوابه

---

* رئيس قسم التاريخ / كلية الآداب / جامعة الموصل

(يولني الشام وخراسان لي)[٢] فقد تصدى له المنصور وترتب على مقتله ظهور حركات شعوبية وزندقة ظهرت على شكل حركات مسلحة وتيارات فكرية مجوسية هدفت الى تمزيق وحدة الدولة العباسية وتشجيع الحركات الانفصالية ، منها حركة سنباذ الذي اعلن العصيان على الدولة في خراسان والجبال ، وحركة اسحق الترك ، والحركة الراوندية وحركة استاذسيس التي تحمل اتجاهات سياسية إنفصالية ونزعات مجوسية ، وتصدى لها الخليفة المنصور فقضى عليها[٣] .

وظهرت في خراسان ايضاً حركات مسلحة في خلافة المهدي ، اخطرها حركة المقنع التي استمرت بين سنتي ١٥٩-١٦٣ هـ وكانت حركته تهدف الى تمزيق وحدة المسلمين وتكتل العناصر المجوسية حوله ، فتصدى له الخليفة المهدي واستقر في خراسان لمراقبة الموقف وتوجيه الجيوش فقضى عليه[٤] .

وحاولت الاستقراطية الفارسية انتهاج سياسة ابي مسلم الخراساني في تجميع العناصر الفارسية ومساندة الحركات المناوئة للدولة العباسية بهدف اضعافها تمثلت في ميول البرامكة السياسية فقد اتهمهم الرشيد بالخيانة العظمى له وللدولة بتشجيع الحركات الخارجة على الدولة ، فيذكر ابن الاثير: ان موسى بن يحى البرمكي كان مهتماً بتحريض اهل خراسان على نبذ الطاعة[٥] . وقد عبر الرشيد عن مخاوفه من سياسة البرامكة بقوله (اني خائف ان تمكن هؤلاء من خراسان ان يخرج الامر من يدي)[٦] ويرى كرد علي : ان الفرس كانوا يحاولون منذ القرن الاول الهجري ان يعيدوا الملك فيهم فارسياً ويخرجوه عن صبغته العربية[٧] .

ويبدو ان البرامكة كانوا يعدون العدة للانقضاض على الدولة في خلافة الرشيد فقد اعدوا الجيوش الكبيرة من الفرس في خراسان وكونوا فرقاً كبيرة سموها (العباسية) وكان قوادها من العجم ، ودون اسماء الجند في سجلات خاصة واجرى عليهم ارزاق دائمة من بين مال المسلمين وجعل ولاءهم جميعاً لآل برمك دون غيرهم[٨] .

ويبدو ان الخلفاء الذين جاءوا بعد الرشيد لم يستفيدوا من تجربة العباسيين مع الفرس فقد اسهمت هذه العناصر في اثارة الفتنة بين الامين والمأمون وفي تشجيع المأمون على الاقامة في خراسان واتخاذ مرو عاصمة له . فقال له وزيره الفضل بن سهل (وكيف بك وانت نازل في اخوالك وبيعتك في اعناقهم واجبة ...)[٩] وحاول الفضل بن سهل التخلص من القواد العرب فدبر مؤامرة للخلاص من القائد العربي هرثمة بن اعين الذي اراد ان يعرض على المأمون ما يدبر له الفضل وما يكتم عنه من الاخبار فسعى الفضل في تغيير قلب المأمون عليه فحبسه ودس الفضل اليه من قتله وقال مات حتف انفه[١٠] .

وكان من اخطر الحركات الشعوبية المسلحة تلك التي ظهرت في خلافة المعتصم وهي حركة بابك الخرمي ، وحركتا الافشيين والمازيار، وقدكانتا حركتين مسلحتين متممتين وتكمل احداهما الاخرى وهما متشابهتان في الهدف والغاية والوسيلة وكانت ترميان الى احياء العقائد المجوسية واقامة دولة فارسية جديدة منفصلة عن الدولة العباسية [11] .وقد انضوى تحت لواء هذه الحركات من بقي من المجوس وقطاع الطرق واللصوص والدعار وارباب النحل الاباحية ، واستخدم بابك الخرمي القتل والتمثيل الوحشي بالرجال والنساء والصبيان ودمر القرى التي استولى عليها ، وقد تصدى الخليفة المعتصم لهذه الحركة فتمكن من القبض عليهم ومحاكمتهم لخيانتهم للدولة وخروجهم على الاسلام.

يظهر مما تقدم ان جعل حركات الزندقة والشعوبية الفارسية التي ظهرت في العصر العباسي الاول ارتبطت باثار دعوة ابي مسلم الخراساني الانفصالية. فلما راوا ان ذلك لم يتحقق قاموا بحركات عسكرية مسلحة واسعة ، ولما فشلت التجأ الفرس الى الجانب الفكري (الثقافي) لعله يحقق لهم امالهم.

وقد وقف الخلفاء والفقهاء والكتاب والادباء وعامة الناس في معركة التصدي لمجابهة هذا الخطر الداهم على العروبة والاسلام بالرد عليهم ودحض ادعاءاتهم وافتراءتهم.

وفي مطلع القرن الثالث الهجري برزت تحديات جديدة على المسرح السياسي للدولة العباسية كان لها اثر عميق في الدولة وفي مركز الخليفة ، فلم يعد الخلفاء العباسيون يطمئنون الى الفرس لنزعتهم العنصرية الانفصالية وميولهم المجوسية ، ولاختلال التوازن بين العرب والفرس واستحالة التوفيق بينهما فلجأ الخليفة المعتصم الى استخدام عنصر ثالث جديد وهم الاتراك وجعل منهم قوة عسكرية يعتمد عليها [12] ، حتى بلغ عددهم سبعين الفا [13] . وادت سذاجتهم وبداوتهم الى الاستخفاف بسلطات الخلافة في العاصمة وصاروا يستهترون بارواح الناس فيقول الخطيب البغدادي عنهم (انهم كانوا عجماً جفاة يركبون الدواب فيتراكضون في طريق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمراة ويطاون الصبي) [14] .

فلما ولي الواثق الخلافة (٢٢٧ – ٢٣٢ هـ) اقتدى بابيه المعتصم في الاعتماد على الاتراك واصبحت المناصب الخطيرة في الدولة بايديهم فاستخلف اشناس التركي على السلطة والبسه تاجاً مرصعا بالجواهر [15] .

وبدأ نفوذ الخلفاء يتقلص بسبب اتساع نفوذ الاتراك في شؤون الدولة فاستبدوا بالخليفة حتى أخذوا يتدخلون في اختيار الخلفاء ووزرائهم وعزل بعضهم احياناً [16] ، وكان مقتل الخليفة المتوكل على يد القادة الاتراك ايذانا بانتهاء مجد الخلفاء العباسيين اذ

اصبحت حياة الخليفة متوقفة على رضا الاتراك. واستولوا على خزائن الاموال مما دفع الخليفة المتوكل الى مصادرة اموال وصيف التركي فدخل عليه باغر التركي ومعه عشرة اتراك وعنده وزيره الفتح بن خاقان فضربها بالسيف فماتا[١٧].

وحاول الخليفة المنتصر التصدي لقادة الجند الاتراك وكان يلعنهم ويقول هؤلاء قتلة الخلفاء[١٨].

وقد واجه القادة الاتراك في هذه الفترة اشتداد نقمة العامة على الاتراك لسيطرتهم على مقاليد الامور والاموال والاقطاعات ، وقد حاول خلفاء هذا العصر تارة مراعاة جانب الاتراك وتارة الحزم في ضربهم او الايقاع بينهم لاضعافهم ، فقد تصدى لهم الخليفة المهتدي وحاول استقطاب الجند تحت زعامته والاستعانة بالفقهاء والعلماء والرعية عليهم فاعلن النفير العام مبيحاً دماء الاتراك واموالهم[١٩]. وتولى بعده الخليفة المعتمد يعاونه اخاه الموفق الذي كان حازماً شجاعاً مهتماً باحوال الرعية وسياسة الدولة [illegible] حركة الزنج واحرز انتصارات عظيمة عليهم ، وتعد عهود الخلفاء المعتمد والمعتضد والمكتفي من العهود المجيدة في تاريخ الخلفاء العباسيين لما امتازت به من القوة في التصدي لنفوذ الاتراك ولمقاومة الحركات الانفصالية ، فكان الخليفة المعتضد شديد الوطأة على الاتراك فهابه الجند والعامة وهدأت الفتن حتى انه كان يسمى (السفاح الثاني) لانه جدد ملك بني العباس ، وذلك بالقضاء على الثورات والحركات الانفصالية فتقدم المعتضد الى قتال وصيف الخادم الذي خلع طاعة الخليفة فقبض عليه وحمله الى بغداد وصلبه[٢٠].

في سنة ٢٨٣ هـ ظفر المعتضد بهارون الشاري زعيم الخوارج بالجزيرة وصلبه[٢١]. وفتح المعتضد في سنة ٢٨٥ هـ حصن امد كما فتح قنسرين وفي سنة ٢٨٧ هـ اعاد المعتضد نفوذ الخلافة وسيطرتها على بلاد ماوراء النهر وخراسان ، كما ابطل بعض العادات والتقاليد المأخوذة عن المجوس وخاصة في عيد النيروز[٢٢]. وفي سنة ٢٨٩ هـ قبض المعتضد على زعيم القرامطة بسواد الكوفة وقطع اطرافه ثم قتله[٢٣]. وفي خلافة المكتفي (٢٨٩– ٢٩٥ هـ) سار على سياسة ابيه في قتال الخارجين على الدولة فانفذ الجيوش لقتال القرامطة في معركة النعمان كما قبض على صاحب الشامة القرمطي وعلى ابن عمه المدثر فسار بهم الى بغداد حيث قتلهم[٢٤]. وفي سنة ٢٩٢ هـ استرد الخليفة المكتفي مدينة دمشق كما استعاد حكم مصر من هارون بن خمارويه وقبض على الطولونيين واستصفى اموالهم وقيدهم الى بغداد[٢٥].

تولى المقتدر الخلافة بعد وفاة المكتفي وهو فتى صغير لم يبلغ الثالثة عشرة من عمره ، فقد وقع تحت تأثير حرم القصر ، وعاد الجيش يتدخل في سياسة الدولة واشتدت فعاليات

الحركات الخارجية مما كان لها اثرها في اضطراب الامور، وضعف مؤسسات الدولة وقد حاول الخليفة القاهر الحد من طغيان الاتراك اذ كان شديداً على اعداء الدولة العباسية والمجتمع فهدات الامور واستقر الامن فعظمت هيبة الخليفة في النفوس[٢٦]. ولم يلبث ان تامر القادة الاتراك مع الوزير ابن مقلة انتهت بالقبض عليه وسملت عيناه[٢٧].

يتبين مما تقدم ان تسلط الاتراك على الخلافة ومؤسسات الدولة واستحواذهم على الاموال اسهمت مساهمة فعالة في اضعاف مكانة الدولة العباسية السياسية والاقتصادية مما ادى الى افلاس بيت المال وتعرض البلاد لحروب مستمرة ادت الى انفصال بعض الولايات عن سلطة الدولة كقيام دولة الادارسة ودولة الاغالبة في شمال افريقيا وقيام عبدالرحمن الناصر في الاندلس واتخاذ لقب أمير المؤمنين. وقيام الفرس في نقل نشاطهم السياسي الى المشرق واقاموا لهم فيه امارات مستقلة هي الامارة الصفارية[٢٨] (٢٥٤-٢٩٠ هـ)= (٨٦٧- ٩٠٣م) والامارة السامانية[٢٩] (٢٦١- ٣٨٩ هـ) (٨٧٤-٩٩٩م)، هذا فضلاً عن الامارة الطاهرية[٣٠] التي نجح طاهر بن الحسين وابناؤه وهم من الفرس في اقامتها في مطلع القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي في شرق الدولة العباسية كما نجح الزيدية[٣١] في إقامة إمارة لهم بطبرستان سنة (٢٥١هـ = ٨٦٥ م)[٣٢].

واستمرت البلاد تعاني الفساد في الادارة واضطراب الحالة الاقتصادية واستطاعت الخلافة العباسية التخلص من نفوذ الاتراك سنة ٣٣٤هـ في عهد الخليفة المستكفي ولكنها وقعت تحت وطأة سلطة اجنبية وتحديات جديدة اخرى اشد قسوة وشراسة في هيمنتها على الدولة واستغلالها وظلمها للرعية وهم البويهيون الفرس.

صحب مجيء البويهيون تدهور سياسي واجتماعي واقتصادي في الدولة العباسية، وذلك بسبب الصراع الطائفي الذي اثارته العناصر الاجنبية الدخيلة على الحكم العربي الاسلامي والحروب الاهلية وانتشار المجاعات والاوبئة مما استأثروا به من بيت مال المسلمين ومصادرة اموال الناس ظلماً واقطعوا قوادهم واصحابهم القطائع، واصاب الرعية حيف في الجباية من كثرة الضرائب عليهم[٣٣]. مما اثار العامة على هذا الواقع الفاسد فقاموا بثورات متعددة ضد النفوذ البويهي في السنوات ٣٣٩، ٣٤٠هـ، ٣٤٦هـ، ٣٤٨هـ وقد هيأت هذه الاوضاع في الدولة العباسية الروم الى ان يعوثوا فساداً في دار الاسلام. ففي سنة ٣٥٣هـ هاجموا الحدود الشمالية للدولة العربية فغزو الموصل وجزيرة ابن عمر، واحرقوا حمصاً، ودمروا دمشق[٣٤]. واحرقوا المساجد والدور وقتلوا النساء والشيوخ والاطفال والامير البويهي منشغل في معاشرة النساء وشرب الخمور وجمع الاموال والاقطاعات.

وقد حاول معز الدولة البويهي خلع الخليفة المستكفي ونقل الخلافة الى الفاطميين

لانهم يعتقدون ان العباسيين قد غصبوا الخلافة واخذوها من مستحقيها فلم يكن عندهم باعث سياسي وديني يحثهم على طاعة الخليفة ، وقد نصحه احد خاصته بأن لايفعل فقال لمعز الدولة (ليس هذا برأي فانك اليوم مع خليفة تعتقد انت واصحابك انه ليس من اهل الخلافة ولو امرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى اجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد انت واصحابك صحة خلافته فلو امرهم بقتلك لفعلوه)(٣٤) .

فانحطت منزلة الخلافة فقد بقي خلفاء بني العباس مقهورين خائفين وقد قنعوا باسم الخلافة ورضوا بالسلامة(٣٥) . وقد وصف البيروني حالة الخلافة العباسية بهذه العبارة (ان الدولة والملك قد انتقل في اخر ايام الخليفة المتقي واول ايام المستكفي من ال العباس الى ال بويه والذي بقي في ايدي الخلفاء العباسيين انما هو امر ديني اعتقادي لاملك دنيوي(٣٦) ، ويؤكد ارنولد هذه الحالة بقوله (ولم يقل استبداد البويهيين بالسلطة في بغداد عن استبداد الاتراك حتى اصبح خلفاء بني العباس في عهدهم لاقيمة لهم)(٣٧) .

فقد استبد معز الدولة بالسلطة دون الخليفة وتولى عماله وجنده من الديلم وغيرهم اعمال العراق ، وانفرد هو بالسرير والمنبر والسكة والختم على الرسائل والصكوك(٣٨) .

وبعد وفاة معز الدولة خلفه في السلطنة ابنه بختيار سنة ٣٥٦هـ وقد سار سيرة ابيه فطلب مالاً من الخليفة المطيع بحجة صرفه على الجهاد اجاب المطيع قائلاً (الغزو يلزمني اذا كانت الدنيا في يدي والى تدبير الاموال والرجال ، واما الان وليس لي منها الا القوت القاصر عن كفايتي وهي في ايديكم وايدي اصحاب الاطراف فما يلزمني غزو ولا حج ولا شيء مما تنظر فيه الائمة ، وانما لكم من هذا الاسم الذي تخطبون به على منابركم تسكتون به رعاياكم ، فان احببتم ان اعتزل اعتزلت وتركتكم والامر كله)(٣٩) . فقد حاول بختيار السيطرة على اموال المسلمين والبلاد تكابد الجوع والفقر والاوبئة ، والروم تهدد بلاد المسلمين ففي سنة ٣٥٨هـ احرق الروم مدينة حمص وسبوا من المسلمين مائة ألف(٤٠) . وفي سنة ٣٦١هـ اغار الروم على الجزيرة وديار بكر والرها فقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً وساروا يدمرون المدن حتى وصلوا نصيبين(٤١) ، وبختيار ليس له من الامر شيء.

وفي خلافة القادر بالله (٣٨١- ٤٢٢هـ) انتعشت الخلافة العباسية واستردت رونقها واخذت امورها في القوة حتى وفاته سنة ٤٢٢هـ(٤٢) . وذلك بالعمل على الحد من نفوذ البويهيين باذكاء الفتن والانشقاقات الداخلية بين امراء البويهيين انفسهم ، واستطاع ان يبني القوة العسكرية التي ستخلصه منهم ، وتبني سياسة دينية جديدة تجلى فيها الخليفة القادر في صورة المصلح الديني ، فلجأ الى الفقهاء والعلماء ، وانضم اليهم المفكرون والادباء والشعراء وهم الطبقة المثقفة في المجتمع واتخذها سلاح ضد البويهيين وضد الحركات

الباطنية ، المناهضة للاسلام ، وذلك بتذكير الناس في المناسبات الدينية والقومية بالخطر البويهي.

ورغم ذلك فقد استمر سلطان ال بويه قوياً مما ادى الى ضعف الدولة العباسية وانفصال العديد من اقاليمها خلال فترة حكمهم ، ففي عهد القادر ظهرت الامارة العقيلية واستمرت بالموصل الى سنة ٤٨٩ هـ حيث انتهت على يد السلاجقة ، وفي ديار بكر ظهرت الأمارة الروانية منذ سنة ٣٨٠ هـ وأستمرت الى سنة ٤٨٩ هـ وسقطت ايضا على يد السلاجقة ، واستولى بكجور على مصر وكان قبل ذلك واليا على دمشق للعزيز بالله الفاطمي ، واستقل سعد الدولة ابن سيف الدولة بن حمدان بحلب حتى اسست سنة ٤١٤ هـ الامارة المرداسية في حلب وظلت قائمة حتى سنة ٤٧٢ هـ حيث انتهت على يد العقيليين...

وفي المشرق قامت الامارة السامانية في اقليم ماوراء النهر ، وقامت على انقاضها الامارة السبكتكينية التي استمرت حتى سنة ٥٨٢ هـ وانتهت على يد الامارة الغورية كما قامت بجرجان الامارة الزيارية حيث قضت عليها الامارة الغزنوية سنة ٤٣٤ هـ[٤٣] .

ولاريب في ان فترة النفوذ البويهي في الدولة العباسية من اسوء الفترات التي مرت في تاريخ العراق ، فقد اثاروا الفتن الطائفية بهدف تمزيق وحدة الامة والدولة وبهدف تثبيت سلطتهم في الدولة ، وسيطروا على بيوت الاموال ، وصادروا اموال الرعية وضياع الخلافة ، وبيعت مناصب الدولة فانتشرت الرشوة ، وساءت اوضاع الرعية وتعرضت البلاد الى المجاعات والاوبئة والفيضانات واشتدت المنافسة بين امراء البيت البويهي على السلطة مما ادى الى حروب طاحنة كان بنتيجتها ان شجعت حكام الولايات على الانفصال بولاياتهم ؛ كما انها بنفس الوقت مهدت الطريق لظهور عنصر اجنبي اخر لايقل خطورة عما سبقهم وهم السلاجقة لغزو العراق ودخولهم بغداد سنة ٤٤٧ هـ — ١٠٥٥ م.

تعود صلات السلاجقة بالخلافة العباسية بعد الانتصارات التي احرزوها على الغزنويين سنة ٤٣١ هـ = ١٠٣٩ م[٤٤] . وعلى اثرها بعث امراء السلاجقة وفدا الى الخليفة العباسي القائم بامر الله سنة ٤٣٢ هـ = ١٠٤٠ م اظهروا فيها طاعتهم وولاءهم للخليفة العباسي وانهم على اتم استعداد ليكونوا عبيدا للخليفة في حفظ البلاد والعباد[٤٥] . وقد دفع هذا التجاوب الخليفة الى الاعتراف بما تحت ايديهم من البلاد ، الا ان هذا التجاوب زال لعدم التزام السلاجقة بعهودهم للخلافة ولتسلطهم على الامور في بغداد مما اثارت سخط الخليفة والرعية الذين كانوا اول الامر مستبشرين لخلاصهم من التسلط البويهي[٤٦] .

وفي حقبة النفوذ السلجوقي ٤٤٧ - ٥٩٠ هـ فقد تولى بعض خلفاء هذا العصر زمام الامور فانتعشت مؤسسات الدولة ، واستعادت هيبتها وقوتها ، وظهر ذلك واضحا من خلال تصدي بعض الخلفاء لنفوذ امراء السلاجقة ، وقد تجلى هذا في موقف الخليفة المسترشد بالله عندما عزم سنجر السلجوقي على مهاجمة بغداد وتوعد الخليفة فكتب اليه وزيره ابن صدقة يقول له فيها (والله لئن تحركت لاقطعن جميع ماوراءك عنك واقطعك عنه ، ولئن سرت فرسخا لاسيرن اليك فرسخين)(٤٧) . وتعد هذه من المواقف النادرة للخلفاء العباسيين حيث تستعيد الدولة استقرار مؤسساتها الادارية والمالية وتزدهر فيها الحياة الاقتصادية ويسود العدل بين الرعية ولكن السمة البارزة للعصر السلجوقي هو التسلط على الخلفاء ومؤسسات الدولة وبيوت الاموال(٤٨) .

وفي آواخر القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي بدا نفوذ السلاجقة بالضعف نتيجة الانقسام والنزاع الذي دب بين الاسرة السلجوقية ، كافة بعد وفاة ملكشاه ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م ، وكان من الطبيعي ان يؤدي هذا النزاع على السلطة ايضا الى صرف السلاجقة عن متابعة قتال الصليبيين ونصرة الاسلام والمسلمين. فقد استولى الصليبيون على انطاكية سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م وعلى بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م . وزاد نشاط الباطنية في الجهات الشرقية من الدولة العباسية . وقد انتهز الخليفة العباسي المسترشد بالله ومن جاء بعده من الخلفاء فرصة ضعف وانقسام السلاجقة فتصدوا لهم بالعمل على استعادة ماكان للخلافة من سلطان وذلك بالتخلص منهم في بغداد واعادة بناء سور بغداد سنة ٥١٧ هـ = ١١٢٣ م وعمل اهالي بغداد في بنائه(٤٩) . كما تطوع اهالي بغداد في التصدي لجيش طغرل السلجوقي(٥٠) . وعندما حاول السلطان محمود السلجوقي احتلال بغداد عام ٢٥١ هـ = ١٠٢٧ م استاء العامة في بغداد وانضموا الى جيش الخليفة ، وقاموا بحفر الخنادق للدفاع عن بغداد ، فيذكر ابن الاثير: ان جيش الخلافة والمتطوعين من اهالي بغداد والسواد بلغ عدده ثلاثين الف فارس(٥١) .

فقد نجح الخليفة المقتفي لامر الله من التصدي لنفوذ السلاجقة باعتماده على الشعب في مقاومة اعدائه ، وقد حق قول بعض المؤرخين عنه (وفي ايام المقتفي عادت بغداد والعراق الى يد الخلفاء ولم يبق منهم منازع)(٥٢) ؛ فقد امر سنة ٥٤٣ هـ = ١١٤٨ م بتجهيز الجيش وتنظيمه وتسليحه ، كما امر بحفر الخنادق وعمارة السور وتحصين بغداد والزام كبار التجار والزراع واعيان الرعية القيام بما ينفق على العمارات من اموالهم على سبيل القرض والصدقة استعدادا لمواجهة اي هجوم يقع على بغداد.

وقد سار الخليفة الناصر لدين الله مسيرة الخليفة المسترشد بالله في الاعتماد على الامة

في مقاتلة اعدائها ؛ فقد تصدى الخليفة الناصر لطغرل بن ارسلان شاه الذي كان نفوذه يشمل همدان واصبهان واذربيجان وتوابعها ، وقد استعان الخليفة بعلاء الدين تكش خوارزمشاه (صاحب الامارة الخوارزمية) فيذكر ابن الاثير[٥٣] : ان الخليفة الناصر ارسل الى خوارزمشاه يطلب منه مساعدته على طغرل السلجوقي مقابل اقطاعه ماتحت نفوذ السلاجقة ، وكان عرض الخليفة يتفق ورغبات خوارزمشاه التوسعية ، فسار على رأس جيش لقتال طغرل السلجوقي والتقى به على مقربة من الري في منتصف عام ٥٩٠ هـ = ١١٩٣ م فدارت الدائرة على الجيش السلجوقي وقتل طغرل فيها[٥٤]. وارسل خوارزمشاه راسه الى الخليفة ببغداد فنصب فيها[٥٥].

وهكذا تخلصت الخلافة العباسية من النفوذ السلجوقي ، ودخلت في مرحلة استقلال حقيقي دام من سنة ٥٩٠ هـ – ٦٥٦ هـ = (١١٩٣ – ١٢٥٨ م) حيث سقطت بغداد على يد المغول ووقعت في يد عدو اشد شراسية وبربرية من اعدائها السابقين.

مصادر ومراجع البحث

١– المصادر

١– بن الاثير: علي بن محمد الملقب بعزالدين (ت ٦٣٠ هـ = ١٢٣٢ م)
(الكامل في التاريخ) مطبعة البابي الحلبي ١٣١٠ هـ مصر
٢– ابن الجوزي : ابو الفرج عبدالرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م)
(المنتظم في تاريخ الملوك والامم) مطبعة دائرة المعارف العثمانية وحيدر اباد– الدكن
٣– ابن حوقل : ابو القاسم محمد (من اعلام القرن السابع)
(صورة الارض) مطبعة بريل– لندن سنة ١٩٣٨
٤– ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد بن جابر (ت ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ م)
(العبر وديوان المبتدأ والخبر) ، طبع بيروت ١٩٦١
٥– ابن الطقطقي : محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م)
(الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية) مطبعة محمد علي صبيح / مصر
٦– ابن العبري : عزيغوريوس ابي الفرج بن هارون (ت ٨٦٥ هـ)
(تاريخ مختصر الدول) الطبعة الكاثوليكية– بيروت
٧– ابن كثير: عمادالدين ابو الفدا بن اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ – ١٣٧٢ م)
(البداية والنهاية) مطبعة السعادة– مصر

٨- ابن النديم : ابن النديم (ت ٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م)
(الفهرست) مطبعة الاستقامة - القاهرة
٩- ابن الوردي : زين الدين عمر (ت ٧٥٠)
(مختصر تاريخ الدول) القاهرة ١٢٨٥ هـ
١٠- ابو الفدا : الملك المويد عمادالدين اسماعيل (ت ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م)
(المختصر في اخبار البشر) دار المعرفة - بيروت
١١- الاربلي : عبدالرحمن سنبط بن ابراهيم (ت ٧١٧ هـ = ١٣١٧ م)
(خلاصة الذهب المسبوك) مطبعة القديس ١٨٨٥ م
١٢- البنداري : الفتح بن علي بن محمد (من اعلام القرن السابع)
(تاريخ دولة ال سلجوق) القاهرة ١٣١٨ م
١٣- البيروني : ابو الريحان محمد بن احمد (ت ٤٤٠ هـ = ١٤٠٨ م)
(الاثار الباقية عن القرون الخالية) ليبزك ١٨٧٨ م
١٤- الجهشياري : محمد بن عبدوس (ت ٣٣١ هـ = ٩٤٢ م)
(الوزراء والكتاب) مطبعة البابي الحلبي مصر ١٩٣٨ م
١٥- الحسيني : صدرالدين علي بن ناصر (من اعلام القرن السادس)
(اخبار الدولة السلجوقية) لاهور - البنجاب ١٩٣٣ م
١٦- الحموي : شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت (٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م)
(معجم البلدان) دار صادر - بيروت ١٩٧٧ م
١٧- الخطيب البغدادي : الحافظ ابو بكر احمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م)
(تاريخ بغداد) القاهرة ١٣٤٩ هـ
١٨- الذهبي : الحافظ شمس الدين (ت ٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ م)
(العبر في خبر من غبر) طبع دار المطبوعات - الكويت ١٩٦١ م
١٩- الراوندي : محمد بن علي بن سليمان (من اعلام القرن السابع)
(راحة الصدور واية السرور) مجلس رعاية العلوم والاداب ، ١٩٦٠ القاهرة
٢٠- السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١ هـ = ١٥٠٥ م)
(تاريخ الخلفاء) المطبعة الخيرية - مصر
٢١- الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ = ٩٢٢ م)
(تاريخ الامم والملوك) المطبعة الحسينية - مصر
٢٢- القرماني : ابو العباس احمد بن يوسف الدمشقي
(اخبار الدول واثار الاول في التاريخ) طبع بغداد ١٢٨٤ م.

٢٣-القلقشندي: احمد بن علي بن عبدالله (ت ٨٢١ هـ = ١٤٠٨ م)
(ماثر الاناقة في معالم الخلافة) طبع الكويت ١٩٦٤ م.
٢٤-مسكويه: احمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م)
(تجارب الامم) مطبعة التمدن- مصر ١٩١٤ م.
٢٥-المقدسي: مطهر بن طاهر (ت ٣٨٧ هـ = ٩٩٧ م)
(البدء والتاريخ) مطبعة المثنى، بغداد ١٨٩٩ م.
٢٦-النرشخي: ابو بكر محمد بن جعفر (ت ٣٤٨ هـ = ٩٥٩ م)
(تاريخ بخارى) دار المعارف- القاهرة ١٣٨٥ هـ
٢٧-اليعقوبي: احمد بن يعقوب المعروف ابن واضح الاخباري (ت ٢٨٤هـ=٨٩٧م)
(تاريخ اليعقوبي) مطبعة الغري- النجف- العراق

ب- المراجع الحديثة

٢٨-ارنولد: توماس
(الخلافة) دمشق ١٩٤٦ م.
٢٩-امين: احمد
(ظهر الاسلام) مطبعة التاليف والنشر- القاهرة ١٩٣٨ م.
٣٠-امين: حسين
(تاريخ العراق في العصر السلجوقي) مطبعة الارشاد- بغداد ١٩٦٥ م.
٣١-جوهري: طنطاوي
(براءة العباسة) مطبعة البابي الحلبي- مصر ١٩٣٦.
٣٢-حسين: عبدالنعيم
(دولة السلاجقة) مطبعة الانجلو المصرية- القاهرة ١٩٧٥م.
٣٣-الخضري: محمد
(محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية) (الدولة العباسية) القاهرة ١٩٧٠ م.
٣٤-الدوري: عبدالعزيز
(العصر العباسي الاول) مطبعة التفيض الاهلية- بغداد ١٩٤٢ م.
٣٥-(مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي) دار الطليعة- بيروت ١٩٦٩ م.
٣٦-الزهراني: محمد بن مسفر بن حسين
(نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية) مؤسسة الرسالة- بيروت ١٩٨٢ م.
٣٧-كرد علي: محمد
(الاسلام والحضارة العربية) القاهرة ١٩٥٩ م.

الهوامش

(١) اليعقوبي : تاريخ جـ ١ ، ص ١٧٦ .
(٢) الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ٦٤ .
(٣) اليعقوبي : تاريخ ج ٣ ص ١٠٤ ، المسعودي : مروج الذهب جـ ٣ ص ١٠٦ ، ابن النديم : الفهرست ص ٣٤٥ .
(٤) ابن الاثير: الكامل جـ ٩ ص ٧٥ .
(٥) المصدر السابق جـ ٩ ص ٧٠ .
(٦) طنطاوي : براءة العباسة ص ٦٧ .
(٧) كرد علي : الاسلام والحضارة العربية جـ ٢ ص ٢١٣ .
(٨) الطبري : تاريخ جـ ١٠ ص ٢٦٣ ، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٧٢ .
(٩) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٢٧٨ .
(١٠) ابن الاثير: الكامل جـ ٦ ص ١٠٧ ؛ ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر جـ ٢ ص ٢٣ .
(١١) المقدسي : البدء والتاريخ جـ ٦ ص ١١٥ .
(١٢) الدوري : العصر العباسي الاول ص ٣٢٧ ، ص ٣٣٠ .
(١٣) الاربلي : خلاصة الذهب المسبوك ص ١٦٠ ، ياقوت : معجم البلدان مادة (سرمن راي) .
(١٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ٣ ص ٣٤٦ .
(١٥) القرماني : اخبار الدول وآثار الاول ص ١٥٧ .
(١٦) احمد امين : ظهر الاسلام جـ ١ ص ١٠ .
(١٧) الطبري : تاريخ جـ ١١ ص ٦٢ ، المسعودي : التنبيه ص ٢١٣ .
(١٨) المسعودي : التنبيه والاشراق ص ٢١٤ .
(١٩) فاروق عمر: الخلافة العباسية ص ٤٤ .
(٢٠) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ١٧٨ .
(٢١) الذهبي : العبر في خبر من غبر جـ ٢ ص ٦٦ .
(٢٢) ابن الوردي : مختصر تاريخ الدول جـ ١ ص ٢٤٥ ، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١١ ص ٧٠ ، القلقشندي : مآثر الانافة في معالم الخلافة جـ ١ ص ٦٤ .
(٢٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٦٢ .
(٢٤) ابن الوردي : تاريخ جـ ١ ص ٢٤٧ ، المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ١٩٠ .
(٢٥) ابن الوردي : تاريخ جـ ١ ص ٢٤٨ .
(٢٦) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٢٢١ .
(٢٧) ابن الاثير: الكامل جـ ٨ ص ٨٩ ؛ مسكويه : تجارب الامم جـ ١ ص ٢٩٢ .
(٢٨) مؤسس هذه الامارة يعقوب بن الليث الصفار وهو فارسي من مدينة القرنين باقليم سجستان (ابن حوقل : صورة الارض ص ٣٥٣) .
(٢٩) ينتسب : السامانيون الى (سامان خداه) وهو فارسي الاصل اعتنق الاسلام في خلافة هشام بن عبدالملك (النرشخي ، تاريخ بخاري ص ٨٦) اسهم في نشر الدعوة العباسية وساهم من الاستيلاء على سمرقند فكافأه الخليفة المأمون وجعلهم ولاة على اهم مدن اقليم ما وراء النهر ولما زالت الامارة الطاهرية (٢٥٩ هـ = ٨٧٢ م) استقل بحكم اقليم ما وراء النهر (ابن الاثير، الكامل جـ ٧ ص ٢٧٩ .
(٣٠) مؤسس هذه الامارة طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق كان من كبار قواد المأمون اصبح سنة (٢٠٥ هـ = ٨٢٠ م) والياً على المشرق ، استقل بحكم خراسان سنة ٢٠٧ هـ = ٨٢٢ م واسقط اسم الخليفة المأمون من الخطبة (الطبري : جـ ١٠ ص ٢٥٥) ، (ابن الاثير: جـ ٦ ص ٣٦٠) ، (اليعقوبي : جـ ٢ ص ٢٥٧) .

(٣١) مؤسس هذه الامارة الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل ابن الحسن بن علي بن ابي طالب في طبرستان سنة (٢٥٠هـ=٨١٤م)، (ابن الأثير: جـ ٧ ص ١٦٦).
(٣٢) محمد بن الزهراني: نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية ص ٢١.
(٣٣) ابن خلدون: العبر جـ ٣ ص ٧٧٨.
(٣٤) ابن الاثير: الكامل جـ ٨ ص ١٤٩، ابن خلدون: العبر جـ ٣ ص ٧٧٧، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢١٣.
(٣٥) مسكويه: تجارب الامم جـ ٢ ص ١٠٥.
(٣٦) البيروني: الاثار الباقية عن القرون الخالية ص ١٣١.
(٣٧) ارنولد: الخلافة ص ٥٨.
(٣٨) ابن خلدون: العبر جـ ٣ ص ٧٧٨.
(٣٩) مسكويه: تجارب الامم جـ ٢ ص ٣٠٧.
(٤٠) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١١ ص ٢٦٦.
(٤١) ابن كثير: جـ ١١ ص ٢٦٧-ص ٢٧٢، ابن الاثير: الكامل جـ ٨ ص ٢٠٤، ابن الوردي جـ ١ ص ٢٩٦.
(٤٢) ابن الاثير: الكامل جـ ٩ ص ٢٨، الاربلي: خلاصة الذهب ص ١٩٢، الخطيب البغدادي: جـ ٤ ص ٣٨.
(٤٣) الخضري: تاريخ الامم الاسلامية ص ٣٩٩-٤٠٨.
(٤٤) الراوندي: راحة الصدور ص ١٦٢.
(٤٥) البنداري: دولة ال سلجوق ص ٧-٨.
(٤٦) ابن الجوزي: المنتظم جـ ٨ ص ١٦٤.
(٤٧) ابن الطقطقي: الفخري في الاداب السلطانية ص ٢٤٤.
(٤٨) حسين امين: العراق في العصر السلجوقي ص ٢٠٣.
(٤٩) ابن الاثير: الكامل جـ ١٠ ص ٦١٦-ص ٦١٧.
(٥٠) المصدر السابق: جـ ١٠ ص ٦٢٦.
(٥١) المصدر السابق: جـ ١٠ ص ٦٣٧.
(٥٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٧٧.
(٥٣) ابن الاثير: الكامل جـ ١٢ ص ١٠٧، الزهراني: نفوذ السلاجقة السياسي ص ١٦٥.
(٥٤) البنداري: ال سلجوق ص ٢٧٧، الحسيني: الدولة السلجوقية ص ١٨٩.
(٥٥) ابن الاثير: الكامل جـ ١٢ ص ١٠٨، ابن الساعي: الجامع المختصر جـ ٩ ص ٣٥.